

تدبر آية (١)

(إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، أما بعد:

فتحت قوله سبحانه: (عندك) يلوح لي معنى لطيف، وسر بديع .. ألا وهو: أن هذا هو الشأن .. متى ما بلغ الوالدان -أو أحدهما- الكبر؛ فوهن العظم، وضعف الجسم، واعتلت الصحة - أن يكونا "عند" الابن؛ قال ابن جزري: (ومعنى "عندك": أي في بيتك وتحت كنفك).

هذا هو المعقول، وهذا الذي ينبغي؛ فعند من يكونان إذا لم يكونا عنده؟! والشرع والعقل، والفطرة والمروءة، كلها شاهدة بهذا .. أن يكونا في كنفه وكفالتة؛ وليس أن ينأى عنهما، ثم يمن عليهما بزيارات شحيحة متى ما فرغ من شغله وشغل عياله! وليس وجودهما "عنده" شيئاً يتفضل به عليهما! بل هذا مقتضى العدل؛ فالغرم بالغنم. قال الخازن في الآية: (معناه أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر).

وإذا كانا "عنده" وجب أن يكونا الأهم؛ فلهما الصدارة، ولهما الأولوية، ومن سواهما فدونها في الرتبة، وبعدهما في المكانة، ولو كانوا الزوجة والأولاد!

وإذا كانا "عنده" فهذا الوضع له تبعات؛ إذ إنهما يحتاجان منه إلى ما كان يحتاج منهما في طفولته، وهذا مظنة التبرم والضجر؛ فاحتيج إلى تذكيره بالصبر والاحتمال، ورعاية الأدب ولين الجانب: (فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً، وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) .. خمسة توجيهات جلييلة، وتحت كلٍ من المعاني شيء عظيم.

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في هذه الآية: (فلا تقل لهما أف فيما تميظ عنهما من الأذى: الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميظان عنك من الخلاء والبول)!

ثم إن قوله: (عندك) قد يوحي بمعنى دقيق؛ ألا وهو اللبث وطول المكث، وهو مدعاة لشيء من الضيق؛ إذ قد يصبر الابن على عسر في التعامل مع والديه الطاعنين وهو بعيد عنهما؛ أما أن يكونا عنده؛ فهذا شأن آخر يحتاج إلى تذكير بالصبر، وتحذير من أن يضيق ذرعا بهذين الكريمين .. المحتاجين إليه.

قال القرطبي: (فظول المكث للمرء يوجب الاستئصال للمرء عادة، ويُحصّل الملل، ويكثر الضجر، فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكره ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر)!

ولعمري إن لأهل النفوس الكريمة، والقلوب الرحيمة شأنًا آخر .. فهم أشد ما يكونون فرحًا إذا حلّ الوالدان في ربوعهم، أو ولوا شيئًا من مؤنتهما؛ فيجدون اللذة في رعايتهما، والأنس في خدمتهما .. فطوبى لهم وحسن مأب.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: صالح بن عبد العزيز سندي

This document was created with Win2PDF available at <http://www.win2pdf.com>.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.